قصّة قصيرة

المحقّق

زهير هوّاري

الغرفة واسعة وفارغة من كلّ أثاث. مساحتها لا تتجاوز ٥ × ٤ أمتار. ولكنْ، لِمَ يُتعب نفسه في تحديد مساحتها وهو يعلم أنّه قد لا يغادرها على الإطلاق؟ ذرع الغرفة ذهاباً وإياباً مئات المرّات دون أن يدقّق في هذه المساحة الفارغة. كان جلّ ما يفعله هو أن ينظر إلى حذائه، أو يتطلّع من النافذة. واكتشف أنّ جلد الحذاء قد تشقّق في أكثر من موضع، وأنّ الاهتراء قد أصابَ أسفله، وأنّه لن يلبث طويلاً حتّى يبلى تماماً فيتسرّب الماء منه إلى قدميه.

ومن النافذة بدت السلسلةُ الجبليّة الجرداء. الأشجار قليلة وصغيرة، والصخور رصاصيّة في أغلبها. شاهَدَ فجواتٍ كلسيّةً بيضاء، وطرقاتٍ صخريةً قد شُقّت مؤخّراً باتّجاه القمّة. الصخور الرصاصيّة تلمع تحت أشعّة شمس كانون المتردّدة، وكتلٌ من الغيوم تجوب السماء في غير انتظام. وبدت المساحات الكلسيّة أشدّ بياضاً في فضاء مضيء. لم يحدِّثْ نفسه بصوت عالٍ كما كان دأبه في الماضي، كان كل ما يفعله هو أن يمشي ويمشي، وحين يتعب يجلس هنيهةً مدقّقاً في حذائه. ومن النافذة لمح أكواماً من الغيوم الداكنة التي تحرّكها الرياح.

كان رأسه أشبه ما يكون بسماء ذلك اليوم: أفكاراً تتلاطم ثمّ لا تلبث أن تتبدّد. وتصوّر نفسَه كومةً من الأحجار الكلسيّة الهشّة. وبدا رأسه الآن عبارةً عن غرفة شبيهة بالتي يقبع فيها: مجرّد مساحة خالية. أخرجَ علبة السجائر من جيب سترته وأشعل واحدة. بعد قليل ستنضمّ هذه السيجارة إلى ما سبقها من أعقاب سحقها حذاؤه. كرّر العمليّة مرّةً بعد مرّة. كان المكان صامتاً من الداخل. غير أنّه كان يسمع وقْعَ أقدام ثقيلة تعبر في الغرف المجاورة، وكان صوت المحرّكات المتنقّلة في الخارج يصل إليه.

أدرك أنّه لم يعد قادراً على حمل نفسه ومتابعةِ السير في الغرفة الضيّقة. فاستلقى على أرض الغرفة. وضع رجلاً فوق أخرى بعدما شعر بقسوة الرطوبة تخترقهما كالصور الشعاعيّة، وراح يمتصّ دخانَ السيجارة وأفكاره. تراءت له حياته أمام عينيه مُذْ كان صغيراً يلهو في أزقّة القرية، وحتّى لحظة وجوده في هذا المكان. اكفهرّ وجهه. تدافعت الأسئلة في رأسه على غير انتظام. بدا كأنّه على حافّة الهستيريا: الأسئلة تندفع إلى رأسه، وجسده يصطكّ من البرد. نهض ثانيةً. ذرع الغرفة. وعرف بعد دقائق أنّ رجليه أعجز من أن تحملا جسمه. فألقى بجسده على أرض الغرفة من جديد.

كان ما يعذّبه أكثرَ من حياته، من عمره الذي أمضاه، هو هذا المصير الذي آل إليه. تراءت أمامه مشاهدُ مرعبةٌ من حياته: دماءٌ نسيل من جراح، وجوهٌ مشدودة مُضرّجة، سكاكين، عصيّ، أسلحةٌ حربيّة، أسلحةُ صيد، أدواتُ عمل تتحوّل إلى أعتدةٍ تهوي على الرؤوس، غرقى يتمّ انتشالُهم فيمدَّدون على ضفّة النّهر، أناسٌ يلفظون حياتهم بألم. شاهد أمام عينيْه ناراً متأجّجة تلتهم الناس، أناساً يحترقون ببطء. نفذت رائحةُ اللحم المحروق إلى رئتيْه، وحاصره ضيقُ التنفُّس في الغرفة. ركض نحو النافذة. فتح الزجاج بسرعة. ارتطم وجهه برياح باردة. تراجع. مسح العرق عن جبينه براح يده. رأى نفسه كَمَنْ يقوم بعملين في وقت واحد: إبعادِ نقاط العرق عن متابعة سيرها باتجاه الحاجبيْن فالعينيْن، وإبعادِ أفكاره تلك عن رأسه. كاد أن يسقط مغميّاً عليه. تمالك نفسه. شدّ أعصابه. تناول علبةَ السجائر وراح يغنّي بصوت خفيض.

لم يعرف تماماً كيف استحضرتْ ذاكرتُه التي غارت هذه الأبيات؛ استحضرتها في ثناياها كماء المطر. وتأكّد له أنّ الأبيات التي يترنّم بها كان قد سمعها منذ ثلاثين أو خمسين عاماً. وعندما تحرّكتْ قدمه لتسحق عقب السيجارة، شعر بأنّه أحسنُ حالاً. رأى أطفاله كأنّهم يقفون أمامه في صورةٍ تذكاريّة، ثمّ ذرعتْ صورُهم ـ وهم فرادى ـ رأسَه، على نحو ما كانت خطواته قبل قليل تذرع الغرفة متعبةً. لم يقف عند مشهد بكائهم لحظةَ خروجه، إذْ عاد إلى مشاكساتهم التي لا تنتهي. وعادت الأسئلة تضجّ في رأسه: ماذا سيكون القرار بشأنه؟ وهو لا حول له ولا طول، لا يستطيع أن يدفع خَطَراً عنه ولا يقدر أن يسرّع فرجاً. عاد أطفاله إلى التراكض بعبث في ساحة الدار، وتدفّقت أسئلة حياتهم في رأسه: مَنْ، ومَنْ، ومَنْ؟

ولا بدَّ أنَّ واحداً منهم سيبقى للعام المقبل، ولذلك فإنَّه لا بدَّ من العمل، ولن تظلّ الأمور بهذا السوء.

شاهد نفسه ولداً أحمق في حقل والديه يتنصَّل من العمل كلَّما أمكنه ذلك. قبل أربعين عاماً ـ أو ربَّما أكثر قليلاً أو أقلّ، فهو لا يعرف بالضبط ـ ذهب حافي القدمين برفقة آخرين. كانوا رهطاً من الفلاَّحين الذين لا عمل لديهم في مثل ذلك الوقت. سرق عدّة أرغفة من معجن الخبز، ووضع ثلاثة أقراص من الجبن داخل الأرغفة، ولفّها في رقعة قماش، والتقى الآخرين في الطرف الجنوبي للقرية، ومن هناك ساروا معاً. لكنّهم ما إنْ ابتعدوا مسافة كليومترين عن القرية حتّى شعروا بالخوف، فصاروا يغنُّون للقاوقجي ويمشون. وظلُّوا يمشون حتى تعبت عشراتُ القرى من مشهد هذه المجموعة التي تمرّ على بيوتها لتشرب وتتابع السير. وعندما وصلوا كانت حصى الطرقات قد أكلت من أقدامهم الكثيرَ من اللحم الميّت. وصلوا في عشيّة أحد الأيّام، وعادوا صبيحة اليوم التالي. كان كلّ ما فعلوه هو أنّهم سجّلوا أسماءهم وأُطعموا وقيل لهم: «في حالة الحاجة إليكم سنذهب نحن إليكم». عندما قفل إلى المنزل أخذت أمّه تشمشمه. قالت إنّها تعاركت مع أبيه: فهو يريده أن يذهب وهي لم تعرف أنَّه فعل ذلك.. لا تريده أن يموت. قالت «إنَّ أباك لا قلب له مع أنَّه قال إنَّه يحبّك أكثر ممّا أحبّك».

ذكريات تدافعت في رأسه... التفت إلى ذاته، فشاهد نفسه ملقى في غرفة غير مقفلة وهو لا يستطيع الخروج منها. كان يبحث عن أجوبة لا يجدها. ظلّت علامات الاستفهام تحوم في فضاء الغرفة البارد دون جدوى. لم تعد المسألة بالنسبة له مسألة فلسطين؛ فقد باتت إسرائيل في مسامّ كلّ جلد في لبنان. وهو الآن رهينة قرار ينتظره. كان يردِّد: الخيانة.. الخيانة.. ويرتاح من عبء الأسئلة التي تثقل عليه سنواته. الخيانة منذ عبد الله حتّى من ومن ومن؟.. لم يشعر بحقد على أولئك الكبار، بل على أولئك الصغار الذين كان يراهم أمامه صباح مساء: ذئاب رماديّة تجوب طرقات القرية تبحث عن فريسة ما، منع تجوُّل، مراقبة الناس، ضرب هذا، تهديد بقطع لسان تلك، ابتزاز أموال، تهجير من لا يوافق على آرائهم، سوْق الناس لحضور المهرجانات السياسيّة، وكلمات كالسياط حول التحرير واللبناني ـ اللبناني وديموقراطيّة المؤسّسة. بل لقد جرت أكثر من ثلاث محاولات لاغتياله: في إحدى المرّات سمع الرصاص يئزّ قرب أذنه فانبطح على الشوك؛ وفي المرّة الثانية اخترقت رصاصةُ قنصٍ جدارَ الغرفة حيث كان يجلس؛ وفي الثالثة أصابت قذيفة صاروخيّة بابَ المطبخ حيث كان يعكف على إعداد قهوة الصباح.. ومع هذا، فقد كان يعتقد أنّهم أجبن من تنفيذ الاغتيال.. «إرهاب، ممكن. اغتيال، لا»، هذا ما كان يقوله. وكان يجيبهم عندما يقولون إنّهم «على الأرض» أنَّ حذاءه على الأرض هو أيضاً، وأنَّ أحداً لا يستطيع رفعه عنها دون إرادته هو. فجنَّ جنونهم وكشّروا عن أنيابهم وازدادوا عدوانيّة..

أشعل سيجارة جديدة، وعاد ينظر إلى مساحة الغرفة، إلى جدرانها المطليّة بالكلس الأبيض. كان يودُّ أن يذهب إلى الجندي ليسأله أن يطلب من الضابط أن يبدأ التحقيق معه بأسرع وقت ممكن. لكنَّ الجندي كان قد أمره عندما أدخله إلى الغرفة بأن يبقى في مكانه حتّى يأتي في طلبه. شعر أنَّ أهمَّ إنجاز حقّقه هذه المرّة هو أنَّه أحضر معه ثلاث علب سجائر؛ ففي المرّة السابقة عندما احتجز في مركز التحقيق عانى هو والمحتجزون الآخرون من فقدان السجائر، وقد أزعجه ذلك أكثر من انعدام الطعام والماء. وأمَّا الآن فباستطاعته أن يدخّن ويدخّن ويجعل أرض الغرفة مسرحاً للبقايا المسحوقة. لكن وفرة السجائر لم تضعه خارج دائرة المكان الذي يطبق على صدره. لقد وجد نفسه ضعيفاً، بل إنَّ جسده كان أشبه ما يكون بعمود مهشَّم أعجز من أن يسند حياته الموشكة على السقوط؛ عمودٍ من خشب الحور الذي استوطنه السوسُ سنواتٍ وسنوات، عمودٍ قابل للانهيار في أيِّ لحظة. تناول من جيبه حبّتي «پانادول» وبلعهما دون ماء. عاد إلى المشي، ارتمى على الأرض ككومة من التعب. حدّق في سقف الغرفة، أمسك جبينه بأصابعه. ضغط على صدغيه علّه يساعد الدواء على طرد الصداع وأفكاره المضطربة. شعر ببرودة غير عاديّة، ودَّ لو أنَّ هناك فراشاً لكي يتدثّر بأغطية ثقيلة. نهض ثانية، وقف أمام النافذة. أمسك بحديدها الدائري المصنوع على شكل أوراق أزهار، نظر إلى الجرود والمرتفعات البعيدة. تدافعت الدموع في عينيه، بدت حياته كتلك المرتفعات التي تبدأ من القمّة ثمّ لا تلبث أن تندفع بانحدار مرعب نحو الأسفل. ودَّ لو يموت في هذه اللحظة، لو أنَّه مات منذ وقت طويل. نظر إلى وجهه في زجاج النافذة، وأخذ يدقّق في تفاصيل وجهه. تذكَّر نفسه بعد غياب طويل، فمنذ أشهر ـ ربَّما ـ لم يقف أمام المرآة. شاهَدَ تجاعيدَ باهتةً، بياضاً كالكلس على رأسه، عينين متهالكتين، خدّين متهدّلين، ذقناً مقوَّسة. لم يكن يتصوَّر نفسه على هذا النحو. كاد أن يسقط على الأرض. اتّكأ على النافذة، ووضع رأسه بين راحتيه. دخلت موجات متلاحقة من الهواء البارد تحت ياقة قميصه.

عاد إلى الماضي. كان طموحه أن يصبح إنساناً عظيم الشأن، ربّما بطلاً يخوض المعارك. استهوته شخصيّة سلطان باشا الأطرش وفروسيّته أمام جيش حديث، وحفظ الكثير من الأشعار التي كان

يردِّدها الثوّار الذين بلغوا حافّة القرية. كثيراً ما تحدَّث عن ثورة الطرشان. وحين مات قائد الثورة السوريّة منذ سنوات، ذهب إلى جنازته، وشاهد المئات يبكون ولم يكونوا يومها في غرف مقفلة كالتي هو فيها الآن. لقد ولّى زمن البطولة.

عندما نظر إلى الزجاج مرّةً ثانية شاهد وجهه وجه حصان هرم، لم يعد له من صورة الحصان إلّا تلك القوائم المرتفعة، وأمّا الجسد فمساحة من ضعف متلاصق تحت تأثير الغضون ودبيب الأيّام. مسح براحة يديه وجهه. نظر ثالثةً في الزجاج فرأى وجهه سلاسل من هزائم تطوّقه تماماً. حتّى حياته الخاصّة، حياته الخاصّة هذه، لم يعد لها من وجود، غارت في القاع هي الأخرى عندما أهيل على زوجته الترابُ الرطب. جلس تحت النافذة مباشرة. تسلّلت حبّاتُ مطر تساقطت على رأسه ورقبته. سوّى كوفيّته البيضاء حول عنقه ثمّ نهض ثانية لينظر إلى البعيد.

عندما طُرق البابُ خفق قلبُه بقوّة. أشار عليه الجندي بالخروج. أخذ من السيجارة نفساً عميقاً، ثمّ قذف بها من النافذة. سار وراء الجندي، عَبَرَ ممرّاً واسعاً. كان يتصوَّر بعد ساعات الانتظار تلك أنّه لن يقوى على المشي. الآن يمشي، وبشكل مقبول. طرق الجنديُ بابَ الغرفة، ثمّ دلف إلى الداخل. انتظر هو خارجاً. فتح الجندي الباب وتركه مفتوحاً وراءه مع إيماءة له بالدخول.

لم يجد الكابتن «نعيم» أمامه، وهو الكابتن الذي يعرفه لكثرة ما تردَّد عليه. كان الكابتن نعيم في حوالي الخامسة والثلاثين من عمره، طويل القامة، عريض الكتفين، ذا وجه مستدير وشاربين كثّين وذقن حليقة على الدوام. وأمّا هذا الذي أمامه فهو قصير القامة، يميل شعره إلى الحمرة، يخفي عينيه بنظّارة سوداء سميكة، هندسي الوجه في تقاطيع حادّة كأنّما قد حُفرت بسكّين. حيّاه، لم يردّ عليه، بل اكتفى بإيماءة من رأسه. وقف منتصباً أمامه. استدار المحقِّق إلى رفوف حديديّة وراء المكتب الذي يجلس عليه، وتناول ملفّاً أصفر عليه أحرف بالعبريّة. وضعه أمامه على الطاولة، حلّ الشريط الذي يطوف بالكرتون المقوّى. فتح الصفحة الأولى، ثمّ شرع يقرأ بصمت. تناول قلماً من المقلمة، وضع خطّاً تحت إحدى الكلمات ثمّ أعاده إلى مكانه. تابع القراءة بحركة بطيئة من شفتيه. بدا المحقِّق هذا مختلفاً عن المحقِّقين السابقين الذين التقاهم. فقد كان وراء المكتب أشبهَ ما يكون بجرذ سقط في إناء من الحِلّ المصبوغ ـ كالذي يستعمل في عمل المخلّلات ـ ثمّ أُخرج منه بصعوبة. مآقيه نافرة، نظّاراته سوداء، ثيابه مشدودة إلى جسمه، حركاته لا يمكن أن تصدر عن مثل هذا الجسم الضئيل. بل إنّ عينيه اللتين تتنقّلان بين السطور لم يكن باستطاعة السجين أن يشاهدهما.

التفت المحقِّق ناحيةَ اليمين، تناول جرساً كهربائيّاً صغيراً، وضغط عليه. حضر الجندي، فأشار عليه أنْ يُعدّ له فنجانَ قهوة. تابع انهماكه في قراءة الملفّ. حدَّق الرجل الستّيني إلى الملفّ الموضوع على الطاولة أمام الضابط. قدَّر صفحاته بمائة أو أكثر. ماذا عساه أن يكون فيه، وعمّا يتحدَّث؟ شعر بالضجر الممزوج بعصارة الإذلال. وضع يده في جيبه، تناول سيجارة، أخرج الولّاعة من الجيب الأخرى. ضغطت إبهامه على ترس الولّاعة، صدر صوت وخرجت شعلة صغيرة. أشعل السيجارة. رفع المحقِّقُ رأسَه، قال له بعربيّة آمراً «أنتَ بتطفي السيجارة». فعل. عاد المحقِّق إلى القراءة. أحضر الجندي فنجانَ القهوة وكوب الماء، وضعهما أمامه على الطاولة. فتح المحقِّق جارور المكتب، أخرج علبة سجائره، أشعلَ واحدةً، وأخذ ينفث دخانها في أجواء غرفة مضاءة نهاراً. نظر الرجل الستّيني في فضاء الغرفة. كانت حركة الدخان لولبيّة، دوائرَ تتداخل بأخرى، أشكالاً ملتوية لا تلبث أن تتحدَّد وتتحلَّل. حركة الدخان تشبه أفكاره، بل تشبه حياتَه المضطربة على كلٍّ صعيد. شعر بتعب من هذا المحقِّق الذي لا يملُّ القراءة. «لقد كان بإمكانه أن يتركني في الغرفة، أذرع أرضها خطواتٍ وتعباً وتشاؤماً حتّى ينتهي من القراءة. كان بإمكانه أن يفعل ذلك، ويتركني أجترّ سجائري وحزني على مهل». تصاعد تعب رجليه إلى رأسه. تصوَّر أنّ أوتارهما قد انقطعت، فسقط على الأرض. ضغط على أسنانه. رفع رأسه إلى السماء. أقنع نفسه بضرورة التماسك. أمضى وقتاً طويلاً ينقّل ناظريْه بين وجه المحقِّق وملفّات المكتب. كان في أحيان كثيرة يوجِّه نظرة نحو هذه الزاوية أو تلك، يرى أمامه أو لا يرى شيئاً. عرف أنّ قواه تنهار أمام برودة هذا المحقِّق الذي يقرأ السطور كمن يتهجّى كلّ حرف فيها. لمعت في رأسه فكرة الطلب إلى المحقِّق بأن يأذن له بالجلوس. جاءه الجواب صفعةً على وجهه: «أنتو العرب حمير». وتابع الضابط قراءة الملفّ.

لم يدر كم من الوقت مرَّ على وجوده في المكتب، لكن المدّة الزمنيّة كانت أطول من أن يحتملها. إنّه يقف في مواجهة المحقِّق تقريباً، والأخير يقرأ ويدخّن. عدّة سجائر أشعلها وأطفأها، وهو ينظر إليه، والمحقِّق لا يرى أمامه سوى السطور وأحرف متلاحقة مطبوعة على الآلة. كانت عادته اللّاإرادية تُلحّ عليه بالتدخين، وكان يعلم أنّ المحقِّق سيعود إلى توجيه الكلمات القاسية له. قرَّر ألّا يسمع المزيد من الإهانات. شعر أنّ ريقه قد جفّ، وأنّ طقم الأسنان الذي يضعه في فمه قد أصبح قطعة حجر جافة، وأنّ لسانه

قد غدا قطعة لحم مقدَّد كالذي يعرفه. المحقق يتنقّل بين السطور والمقاطع والصفحات، وهو يتنقّل بين الخوف والرعب واليأس. كان عطشه وحاجته إلى السيجارة يلحّان عليه. تمالك نفسه ثانية. ولم تلبث الأمور أن دفعته إلى حدود التهوّر. ماذا لو هجم على هذا الجسد الذي يحمل رأساً؟ ماذا لو أمسك بالطاولة الصغيرة التي أمامه، أو بالتمثال النصفي، وهوى بهما على هذا الرأس الذي يضع نظّارتين سوداوين؟. ماذا؟. الموت؟. ليكن. حاول أن يحثّ غددَه الفميّة على إفراز الريق، ليرطّب حنجرته، ليبتلع غضبه وحقده، ولكن دون جدوى.. كان فمه يتمزّق من الداخل. وشعر بأنّ كيانه قد أصبح ثوباً خَلقاً، تعجز خيوطه عن التماسك أمام ضغط هذا المحقّق. نظر إلى زجاج النافذة، شاهد حبّاتِ المطر تترنّح في طريقها نحو الأرض. تمنّى لو كان باستطاعته الخروج من هذا المكان، كي يرفع رأسه نحو السماء، فيفتح فمه للقطرات السماويّة. لقد باتت الحريّة تتراءى له على صورة شربة ماء وسيجارة فقط. إنّه لا يطمع في الكثير: السيجارة، وشربة الماء، والجلوس ساعة يشاء، والوقوف ساعة يريد. رأى نفسه مصلوباً دون مسامير بإرادة هذا المحقّق، مصلوباً في الهواء، معلّقاً في الفراغ، في فضاء الغرفة دون أن تكون ثمّة حاجة إلى يدين مثقوبتين بالمسامير. لم يعد يسمع سوى حفيف أوراق الملفّ؛ كانت كالشفرات القاطعة التي لا عمل لها سوى تمزيق قلبه من الداخل.

«ماذا تريد منّي»؟ قالها بعصبيّة واضحة، وكأنّه يريد من المحقّق أن يلتفت إلى وجوده، أن يدرك أنّ إلى جانبه إنساناً على الصليب. انفجرت جملتُهُ القصيرة في فضاء الغرفة كقذيفة ضالّة في مكان لم يتعود دويَّ القصف. لكن المحقّق لم يستجب إلى السؤال/التحدّي الذي أراد به صاحبه استدراجَه إلى المواجهة. كلّ ما فعله أنّه رفع رأسه عن الملفّ، نظر إليه، شعر بعينيه تتحرّكان وراء الزجاج الأسود، ثمّ عاد إلى القراءة مسطّراً قلمه تحت كلّ ما يراه هامّاً.

هل يصرخ في وجه المحقّق ثانية، وثالثة، أم يسكت؟ لم يدر ما يفعل. قرّر الانتظار. عادت الصفحات تنقلب بين أصابع الضابط بالوتيرة البطيئة عينها، وعاد يراقب رأسَ المحقّق وتفاصيل وجهه. شعر بألم حاد في رجليه، وبتجمّد الدماء في عروقهما، وأيقن أنّه لا يقف عليهما وإنّما على عكّازين خشبيّين. تمنّى لو يستطيع الجلوس على أرض الغرفة، كي يدلكهما بعض الوقت، وتمنّى لو يتمّ السماح له بالمشي في أرض الغرفة. قدّم رجله اليسرى وأرجع اليمنى علّه يشعر بتحسّن، لكنّه لم يفلح. لم تكن رجلاه هماللّتان يشغلان فكره، بل هذا الذي يجلس أمامه. عندما كان ملقى وحيداً في الغرفة، كان هاجسه الوصول للمثول أمام المحقّق. لكن ما يُلحّ عليه الآن هو متى ينتهي هذا المحقّق من القراءة. هو لا يدري تماماً: ربّما ساعة، ساعتيْن. أكثر، أقلّ.. شعر أنّ دقيقة واحدة تمرّ به على هذا النحو أطولُ من عمره بأسره، أشدُّ وقعاً من مصاعب حياته. وعاوده ضيقُ التنفُّس والشعور بالوهن. تصور أنّ انهياره مسألة لحظات مقبلة لا أكثر. المحقّق يضع رأسه في الملفّ ويتابع القراءة.

«أريد أن أشرب»، قالها بحشرجة، تدلّ على أنّ حركة اللسان في الفم قد باتت صعبة تماماً. كان يعتقد أنّ المحقّق لن يردّ على سؤاله هذه المرّة أيضاً. استدار الأخير برأسه إلى الجهة التي صدر منها الصوت. عاجله بسؤال ثان: «هل ستتأخر بالقراءة»؟. خلع المحقّق نظّارته السوداء عن وجهه، فظهرت آثارُ حروق قديمة التهمت حاجبيه. فرك جبينه، وصوّب نظراته إليه. «أنا ما بيحبّ اسمع الصوت مرّة ثانية، لا داعي لأن يُضرب من هو في مثل سنّك». تابع الأوّل: «سأنتظر في الغرفة المجاورة وعندما تنتهي سآتي إليك». ثارت ثائرة المحقّق عندما سمع القرار الذي نطق به. ضرب بيده على طاولة الفورمايكا. تموّج ماء الكأس. اهتزّ فنجان القهوة، ارتجّ الملفّ، وابتعد القلمُ بوصاتٍ عن موضعه «أنت هون بيبقى، وأنا لمّا بيسأل بتجاوب وبس». قال جملته بحدّة ووضع النظارة على وجهه ثانية وجلس على الكرسي.

ضغط على أسنانه، مرّة، مرّتيْن، ثلاثاً.. عاوده الوهن. لماذا لم يتناول طعامه هذا الصباح؟. لقد كان يعلم أنّه سيأتي إلى المحقّق، ومع ذلك فقد اكتفى بفنجان القهوة. لم يفكّر أنّه لو أكل وشرب الشاي فسيضطرّ إلى دخول الحمّام، وبذلك يصبح تصريفُ ما بجوفه مشكلة. لم تأته مثل هذه الفكرة لتمنعه من تناول فطوره. كلّ ما فعله أنّه جلس وحيداً يشرب قهوة أعدّها بنفسه، وكان يدخن ويغنّي. وعندما نظر إلى الساعة خرج من البيت نحو الساحة، ومنها استقلّ أوّل سيّارة متّجهة إلى البلدة المجاورة لمركز التحقيق، دون أن ينسى أن يضع عدداً من علب السجائر في جيب سترته.

عاد إلى لعبة انتظار المحقّق من قراءة التقرير. حركات المحقّق أصبحت روتينيّة لكثرة ما راقبها. هو يعلم الملَلَ الذي تستغرقه عمليّة قراءة الصفحة الواحدة، ويعلم الحركة التي يقوم بها حين يقلب الصفحة، وكيف يدفع بجسده تحت الطاولة، ويحني جذعه كي يصبح رأسه قريباً من أعلى الصفحة. كلّ هذا حفظه عن ظهر قلب. وحفظ أيضاً أنّ معتقل «أنصار» ليس شيئاً مخيفاً بالمقارنة مع ما يعانيه الآن. فهناك يستطيع أن يلقي بجسده في الخيمة كما يشاء، ويجد من يتحدّث إليه.. هناك لن يكون وحيداً، وأمّا هنا فالصمت

المرعب الذي يضفيه هذا الكائن الجالس أمامه يكاد يصيبه بحالة من الهستيريا.

تمنّى لو أنَّ المحقّق يبدأ بتوجيه أسئلته إليه فوراً. يجيب، لا يعجبه الجواب، يصرخ في وجهه، يردّ بغباء، يعود إلى الصراخ، يتقدَّم نحوه، يندفع بجذعه نحوه، يضربه على وجهه. صفعات يد المحقّق أهون عليه من هذا الصمت. عرف أنَّ هذا لن يحدث. تذكَّر أنَّ شاحنات ملغومة انفجرت في مراكز للاستخبارات. لو أنَّ واحدة منها تنسف المكان، فيتشظّى هذا الكائن الغرائبي الذي يجلس أمامه. عرف أنَّه هو نفسه لن ينجو، لكن ما همَّ مادام هذا الذي يرتدي النظّارة السوداء سيُنسف. تنشّق بعمق، عاد يراقب حركات الضابط وهو يدفع بفنجان القهوة إلى شفتيْه، يشعل سيجارة، يرطِّب فمه من ماء الكوب، ينظر بصمت إلى الأسطر، وهو يُقلِّب الصفحة.

لو يرجع إلى البيت بعد هذا الامتحان، لو يرجع إليه، سيسخّن ماء، يضع رجليه فيه، يستلقي على الصوفا بجوار نار الموقد، يتناول عشاءه، لن يذهب إلى السهرة، إذا ما جاءه ضيوف فسيسهر معهم، يشربون القهوة، ثمّ يعود إلى ارتمائه على الكنبة، يشعر بنعاس يتسلَّل إليه، يغرق في النوم قبل أن يحضر له أحدهم الفراش، أو ينهض هو لإحضاره. لو... شعر بشوق كبير لإلقاء رأسه على كتف زوجته الميّتة، والبكاء كطفل صغير. ذهب بعيداً في رحلة ذكرياته. أدرك أنَّه يشعر بحنين إلى بيته، إلى حياته الخاصّة. قد يكون متشائماً من إمكانيّة عودته إلى البيت. ومع ذلك فقد يرجع، هو لا يدري والمحقّق لم يفتح فمه بعد لينطق بالحكم مرّة واحدة. كلّ ما يفعله أنَّه يقرأ، بل إنَّه لا ينظر إليه، ليستشفّ من نظراته موقفاً ما. آه لو يرجع إلى البيت، أو يذهب إلى «أنصار»، كلّ ما يريده هو أن يعرف، أن يعرف شيئاً بعد هذه القراءة التي لا تنتهي.

قطع كلامَ المحقّق تتابعُ الذكريات والأسئلة التي لا تنتهي.

□ انتهيت من قراءة ملفّك الآن. جئتُ من مسافة طويلة لأحقّق معك. هل تريد سيجارة، شربة ماء، طعاماً قبل أن نبدأ؟ لقد تعبتَ. أنت رجل كبير في السنّ ولا أريد أن أزعجك.

ـ لا. لا. لا أريد أيّ شي ممّا ذكرت، أريد فقط أن تحقّق معي.

□ هل أخبرت أحداً بمجيئك إلى هنا؟

ـ لا، لم أخبر أحداً.

□ لن أطيل عليك، لديّ أعمال كثيرة، كلّ ما تعرفه عن نفسك نعرفه عنك. أين تذهب ومع مَن تلتقي وتتعاون؟

ـ لا أتعاون مع أحد ممّن تظنّ.

□ ليس ما تقوله صحيحاً. هل ستتعاون معنا؟

ـ لم أتعاون مع سواكم لأتعاون معكم!

□ ليس لديَّ وقت طويل. أسألك قبل أن أقفل الملفّ: هل ستتعاون معنا؟

ـ أجبتك عن السؤال.

نادى الجندي. فتح الملفّ. كتب في نهاية إحدى الصفحات كلمات، وقّعَ تحتها بسرعة. نظر إلى الجندي، نظر إلى وجه الرجل. أعاد الملفّ إلى المكان الذي سحبه منه، وخرج من الغرفة.